الحركة الفقهيّة ومشاهير الفقهاء في العراق خلال عصر التابعين

ثانيًا: البصرة

• د. حميدان بن عبد الله الحميدان •

نشأة هذا المركز:

بعد أن سكن المسلمون هذه المدينة في عهد عمر بن الخطاب نزلها جمع من كبار الصحابة، أمثال عتبة بن غزوان وبريدة بن الحصيب وأبو برزة الأسلمي وعمران بن الحصين. ومن هؤلاء الصحابة من اختط لنفسه داراً في البصرة فبريدة بن الحصيب وعمران بن الحصين وأنس بن مالك بقوا فيها حتى وفاتهم(١). وكما ساهم فقهاء الصحابة الذين نزلوا الكوفة، فقد ساهم هؤلاء الأصحاب في تأسيس مركز البصرة العلمي، لا سيما إذا عرفنا أن عمران بن الحصين كان مقدمه إلى البصرة لهدف علمي بناء على أمر من الخليفة عمر، فهذا أبو الأسود الدؤلي يقول: «قدمت البصرة وبها عمران بن الحصين، وكان عمر بن الخطاب بعثه يفقه أهل البصرة»(٢) ويبدو أنه استمر يؤدي هذه المهمة حتى وصل إلى مرحلة متقدمة من عمره فابن سعد يروي عن أحد الرواة قوله: «قدمت البصرة. فدخلت المسجد، فإذا بشيخ أبيض الرأس واللحية مستند إلى اسطوانة في حلقة يحدثهم قال: فسألت من هذا؟ فقالوا: عمران بن الحصين»(٣).

كما قام عمران بالإضافة إلى أداء هذه المهمة يتولى القضاء في البصرة ويشير إلى ذلك الطبري بقوله: «استعان زياد بعدد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم عمران بن الحصين الخزاعي ولاه قضاء البصرة»(٤).

ولقد ساهم عمران مع بقية الصحابة الآخرين في إنشاء مركز البصرة العلمي مساهمة فعّالة حتى أن أحد كبار علماء التابعين بالبصرة وهو الحسن البصري قد لاحظ ذلك، وقد عبّر عن فضل عمران على علماء البصرة بقوله : «والله ما قدم البصرة خيراً لهم من عمران».(٥)

ومن الصحابة الذين استوطنوا الكوفة وامتد بهم الأجل ردحاً طويلاً من الزمان أنس بن مالك الذي كان يقوم بدور مهم في نقل ورواية ما سمعه من الرسول صلى الله عليه وسلم، أو ما سمعه من اخوانه كبار الصحابة كما يتضح ذلك من رواية ابن سعد(٦). وكان حريصا على تدوين ما يرويه لتلاميذه، وأبنائه خشية النسيان، وربما كان ذلك في آخر حياته حينما أصبح التدوين أمراً مقبولا فهو يقول : «يا بني قيدوا العلم بالكتاب».(٧)

لقد تتلمذ على هؤلاء الأصحاب جمع كبير من التابعين في مركز البصرة العلمي. وهم وإن أكثروا عن الصحابة الذين استقروا في البصرة فإنهم لم يقتصروا عليهم، بل لقد أخذوا عن المشاهير من الصحابة، وحينما نترجم لعلمائهم سنعرف كيف أن إعدادهم العلمي لم يقتصر على هؤلاء العلماء الذين سكنوا البصرة، بل إن تأثير الصحابة الذين سكنوا الكوفة كان واضحاً على هؤلاء العلماء. وسواء كان ذلك بطريق مباشر، وذلك بلقاء أولئك الأصحاب والأخذ عنهم. أو بطريق غير مباشر عن طريق تلقى العلم على أيدي تلاميذ الصحابة في الكوفة، والذين أخذوا مركز الصدارة في مركز الكوفة العلمي، ومعظم البارزين من فقهاء البصرة قد تتلمذوا على أصحاب ابن مسعود الكوفيين. كما أن بعض هؤلاء العلماء الذين ظهروا في مركز البصرة قدموا من المدينة مثل الحسن وابن سيرين، وهذا يعني أن الصحابة الموجودين في مركز المدينة العلمي قد شاركوا في إعدادهم. ومهما كانت المصادر التي ساهمت في إنشاء مركز البصرة العلمي وإعداد علمائه فإنه لم يمض عصر الصحابة إلا وقد تكامل في هذا المركز جمع من علماء التابعين كان لهم دور رئيسي في تطور الحركة الفقهية في مركز البصرة وأسهموا مع غيرهم من علماء التابعين في متابعة البحث والرواية و الاجتهاد وإثراء الفقه الإسلامي بآرائهم العلمية.

لقد ظهرت في مركز البصرة العلمي في عصر التابعين حركة علمية لها أهميتها بالنسبة لمؤرخي الفقه الإسلامي، كما هو الحال في الكوفة، وإن كان هناك من فارق يذكر فهو يتركز في كون مركز الكوفة قد سجل أسبقية في ظهور طبقة الفقهاء من التابعين. فالمرحلة الأولى لعصر التابعين في الكوفة، والتي قام فيها تلاميذ عبد الله بن مسعود بتحمل

مسؤولية الفتوى لا وجود لها في مركز البصرة. وإنما نجد في البصرة أن الحركة الفقهية بدأت تنشط خلال المرحلة الثانية من عصر التابعين. ولذلك في دراستنا للمشاهير من علمائها سوف نقسمهم إلى مرحلتين الأولى مرحلة كبار التابعين والذين استمر تأثيرهم حتى مطلع القرن الثاني الهجري، أما المرحلة الثانية فتخص تلاميذ هؤلاء العلماء، والذين تولوا القيادة العلمية في مركز البصرة بعد علماء المرحلة الأولى حتى نهاية العهد الأموي، والذين يمثلون حلقة الوصل بين عصر التابعين وعصر أئمة المذاهب.

المرحلة الأولى : مرحلة كبار التابعين :

هذه المرحلة تمتد من نهاية العقد السادس في القرن الأول إلى مطلع القرن الثاني الهجري، وقد برز في مركز البصرة خلال هذه المرحلة عدد من العلماء، إلاّ أن من أشهرهم، جابر بن زيد الأزدي المتوفى سنة ٩٣هـ، والحسن بن يسار البصري المتوفى سنة ١١٠هـ، ومحمد ابن سيرين المتوفى سنة ١١٠هـ. وسوف نترجم لهم جميعا كممثلين لهذه المرحلة، ونحن وإن خالفنا الطريقة التي سرنا عليها في دراستنا لعلماء الكوفة من حيث اختيار شخصيتين فقط تمثيل المرحلة فذلك مراعاة لطبيعة الحركة الفقهية في البصرة التي أشرنا إليها سابقا.

جابر بن زيد الأزدي :

لقد ولد جابر بن زيد في خلافة عمر بن الخطاب، ولذلك فقد تمكن من الالتقاء بالعديد من كبار الصحابة، ولا سيما المفتين منهم فقد التقى بعبد الله بن عباس وتلقى عنه كما تلقى عن عبد الله بن عمر والحكم بن عمرو الغفاري.⁽⁸⁾ وروى عن معاوية، وأكثر من الرواية عن ابن عباس.⁽⁹⁾ لقد لمس علماء الصحابة في جابر المقدرة العلمية والرغبة في التحصيل فأشرفوا على تعليمه وإرشاده إلى الطريق الأفضل حينما يتصدى هو بنفسه للفتوى، فهذا عبد الله بن عباس، وقد علم عن جابر ما علم من القدرة العلمية يقول : «لو نزل أهل البصرة عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً من كتاب الله عز وجل». وقد رشحه ابن عباس للفتوى، ولذلك حينما سأله أحد البصريين عن شيء قال له : «تسألوني وفيكم جابر بن زيد»، وهكذا فعل جابر بن عبد الله الأنصاري فحينما أجاب على سؤال من أحد البصريين قال معقباً : «كيف تسألوننا وفيكم أبو الشعثاء».⁽¹⁰⁾ وتلك كانت كنية جابر بن زيد.

لقد استطاع جابر بن زيد الحصول على هذه المكانة الرفيعة لدى فقهاء الصحابة في مرحلة مبكرة جداً، حيث اعترف له الفقهاء من صغار الصحابة في عصرهم بالمقدرة العلمية، وابن عباس الذي رشحه للفتوى توفى سنة ٦٩هـ، وكذلك ابن عمر المتوفى سنة ٧٤هـ يقابل جابر ابن زيد في مكة في الطواف فيبتدره قائلا : «يا جابر إنك من فقهاء أهل البصرة، وإنك ستستفتى، فلا تفتين إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية».(١١) فهذا اعتراف من ابن عمر بمكانة جابر وكونه مهيئاً للفتيا، وفي نفس الوقت إرشاد من ابن عمر لجابر إلى المنهج الذي يجب عليه أن يتبعه في تصديه للمشاكل الفقهية.

وإذا كان جابر قد حصل على شهادة التقدير من قبل أساتذته من فقهاء الصحابة فإن زملاءه وتلاميذه في البصرة قد اعترفوا له بمكانته العلمية، فهذا عالم مكة المشهور عمرو بن دينار يقول : «ما رأيت أحداً أعلم بالفتيا من جابر بن زيد».(١٢) وهذا أحد أئمة البصرة في المرحلة الثانية إياس بن معاوية يقول : «أدركت البصرة وما لهم من مفت يفتيهم غير جابر ابن زيد».(١٣) وهذا فقيه البصرة الآخر أيوب السختياني يروي عنه حماد بن زيد أنه تذكر جابر بن زيد فعجب من فقهه».(١٤) ويبدو أن جابراً قد سبق زملاءه من التابعين في تحمل مسؤولية الإفتاء في مركز البصرة العلمي، ولكن لم تلبث فترة من الزمن أن مرت، حتى شاركه غيره من علماء التابعين هذه المهمة فسليمان التيمي يقول : «كان الحسن يغزو، وكان مفتي الناس ها هنا جابر بن زيد، ثم جاء الحسن فكان يفتي».(١٥) وهذا يدل على أن عالم البصرة المشهور الحسن البصري لم يجلس للإفتاء إلا في مرحلة متأخرة عن جلوس جابر للفتوى.

وكان جابر بن زيد لا يرى بأساً في كتابة العلم على خلاف المشهور عن علماء التابعين، وقد سأله مالك بن دينار عن صنعة الكتابة، وكان مالك كاتباً. فقال له : «نعم الصنعة صنعتك ما أحسن هذا تنقل كتاب الله عز وجل من ورقة إلى ورقة، هذا الحلال لا بأس به».(١٦) وحينما أخبره بعض زملائه بأن تلاميذه يسجلون آراءه أجابه قائلا : «إنما لله يكتبون»، ولكنه أضاف ليوضح أن الآراء التي يقولها ليس لها صفة الديمومة وإنه من الممكن أن يتراجع عنها : «وأنا أتحول عنه غداً وفي رواية ربما أرجع عنه غداً».(١٧) فهو وإن كان لا يعارض كتابة آرائه الفقهية إلا أنه يريد أن يبين أن تغيير الرأي حق لكل مجتهد متى ما وصله الاجتهاد إلى ذلك.

وتجدر الإشارة أن جابر بن زيد أُتهم بأنه كان يرى رأى الخوارج، وقد اختلفت الروايات حول صحة هذا الاتهام، فالعسقلاني يروى عن يحيى بن معين قوله : «كان جابر بن زيد

أباضياً».(١٨) وإذا كان هذا الاتهام قد وصل ليحيى بن معين عن طريق الرواية فإن الاتهام قد شاع بين العلماء في عصر جابر وجوبه بذلك. ويبدوا أن زملاءه، من علماء التابعين قد أخذهم القلق حيال هذا الاتهام مما دعاهم إلى التوجه مباشرة إلى جابر بالسؤال، فهذا قتادة يروى عن عزره قوله : «قلت لجابر بن زيد إن الأباضية يزعمون أنك منهم، قال أبرأ إلى الله من ذلك».(١٩) وهذا الحسن البصري عالم البصرة وفقيهها يتوجه بالسؤال نفسه إلى جابر في لحظات حرجة جداً، وذلك حينما خاطر الحسن بنفسه حيث كان مختفيا عن السلطة الأموية وذهب لجابر بن زيد ليحضر وفاته بناء على طلب من الأخير، كآخر ما يرغب به من الدنيا، وجاء إليه الحسن ليلاً ولقنه الشهادة ثم أتبع ذلك بسؤال لجابر قال فيه : «إن الأباضية تتولاك. فقال جابر : أبرأ إلى الله منهم» ولكن الحسن يريد أن يتأكد فيضيف للسؤال سؤالاً آخر فيقول : «فما تقول في أهل النهر فأجاب جابر : أبرأ إلى الله منهم».(٢٠)

إن إصرار الحسن البصري على سؤال جابر عن هذه التهمة في هذا الوقت الحرج ليدل دلالة واضحة على انتشار هذه الشائعة بين البصريين في هذه المرحلة، ولكن إصرار الحسن قابله إصرار آخر من قبل جابر على نفي الانتماء إلى الخوارج أو أحد فرقها، وذلك في تصوري دليل كاف على رفض هذه التهمة الموجهة إليه. ولكن ما هو سبب دعوى الخوارج انتساب جابر إليهم ؟ والباحث لا يستطيع إجابة دقيقة نظراً لقلة المعلومات الواردة بهذا الشأن، ولكن في نفس الوقت نجد أن الحركات السياسية في هذه المرحلة كانت تهتم بجماعة العلماء في المراكز العلمية، وتحاول بشتى الوسائل استقطابهم للتأثير على العامة، فلعل حركة الخوارج قد أشاعت بأن عالم البصرة وفقيهها جابر بن زيد ممن يؤيدون وجهة نظرها. ولما لجابر من مكانة علمية في هذه الرحلة فإن ذلك ربما يساعد الخوارج على استقطاب أكبر عدد ممكن لتأييد هذه الحركة.

لقد ساهم جابر بن زيد مع بقية زملائه من علماء التابعين في مركز البصرة العلمي في تطوير الحركة الفقهية وإثراء الفقه الإسلامي بالآراء الفقهية الناتجة عن توليه الافتاء وتصديه لمواجهة المشاكل المستجدة. وكذلك ساهم في تخريج جيل من العلماء، تابع المسيرة العلمية في البصرة بعد مرحلة كبار التابعين، وقد تتلمذ على جابر مشاهير العلماء في المرحلة الثانية أمثال قتادة وعمرو بن دينار وأيوب السختياني وغيرهم.(٢١) ونختم حديثنا عن جابر بما رواه النووي عن مكانة جابر بقوله : «اتفقوا على توثيقه وجلالته وهو معدود في أئمة التابعين وفقهائهم».(٢٢)

الحسن بن يسار البصري :

ولد الحسن البصري في أواخر خلافة عمر بن الخطاب وهو بالتالي كان معاصراً لجابر بن زيد، حيث تشير المصادر أن ولادتهما كانت في سنة واحدة.(٢٣) لقد ولد الحسن في المدينة وبها نشأ وترعرع، وإذا كان قد غادرها في سن مبكرة، وهو في السابعة عشرة في خلافة علي بن أبي طالب،(٢٤) فإن نشأته فيها كان لها أكبر الأثر في الاتجاه الذي صبغ حياته، فلقد كان والده مولى لأحد كبار فقهاء الصحابة وهو زيد بن ثابت،(٢٥) ووالدته كانت مولاة لأم المؤمنين أم سلمة.(٢٦) وقد تولت أم المؤمنين في بعض الأحيان العناية به في الوقت الذي تكون فيه والدته مشغولة بأمور أخرى، ويبدو أن أم سلمة كانت مهتمة بالحسن اهتماماً دعاها إلى أن تخرج الصبي إلى عمر بن الخطاب الذي رآه ودعا له بقوله : «اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس».(٢٧).

لقد بدأ الحسن في طلب العلم خلال وجوده في المدينة، وربما كان زيد بن ثابت هو الشخصية الأولى التي تعهدته بالرعاية ووجهته إلى طلب العلم. ويروي ابن سعد أنه كان للحسن يوم قتل عثمان أربع عشرة سنة، وأنه قد رأى عثمان وسمع منه وروى عنه.(٢٨) فإذا كان قد روى عن عثمان في هذه السن، فهو قد روى عن آخرين في المدينة، لا سيما زيد ابن ثابت. وبالتالي فإن أساسه العلمي قد بنى في هذه المرحلة الأولى من حياته. والمصادر لم تحدثنا بوضوح عن سبب انتقال الحسن من المدينة إلى البصرة، ولكن من الممكن أن نتصور أن الحسن وقد بلغ مبلغ الرجال فقد شارك مع غيره من الشباب في حركة الفتح الإسلامي، فقد كان من المشاركين في الغزو كما ورد ذلك عن سليمان التيمي في قوله : «كان الحسن يغزو»،(٢٩) وإذا كانت هذه الرواية لم تبين في أي وقت كان ذلك إلا أنها تشير إلى مشاركة الحسن في الفتوحات الإسلامية. ثم بحكم كون الحسن قد أجاد الكتابة والقراءة في مرحلة مبكرة من عمره، فإنه قد مارس العمل كاتباً لوالي خراسان الربيع بن زياد الحارثي.(٣٠).

بعد هذه المشاركات من الحسن البصري استقر به المقام في البصرة حيث اتخذها مقراً له واستمر في تحصيله العلمي، ففي البصرة التقى بعمران بن الحصين، وأخذ عنه، وقد سبق أن أوضحنا مكانة عمران العلمية، وكيف أن عمر بعثه ليفقه أهل البصرة، ويبدو أن الحسن قد أعجب به حتى عبر عن ذلك الإعجاب بقوله : «والله ما قدم البصرة خيراً لهم من عمران».(٣١) كذلك في البصرة التقى بسمرة بن جندب وروى عنه.(٣٢)

و لم يكتف الحسن بما رواه في المرحلة المبكرة من حياته في المدينة أو بما وجده لدى العلماء من الصحابة في مركز البصرة، بل أنه قد تنقل بين المراكز العلمية الأخرى ملتقياً بالأحياء من علماء الصحابة أمثال أبي هريرة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، وعبد الرحمن ابن سمرة، وأبي برزة الأسلمي ومعقل بن يسار وقد روى عنهم جميعا كما تشير إلى ذلك المصادر.(٣٣) و لم يقتصر على الصحابة وحدهم بل أخذ عن بعض كبار التابعين فقد روى أنه إذا أشكل عليه شيء كتب إلى سعيد بن المسيب بالمدينة مستفسراً عن ذلك الشيء فيجيبه.(٣٤)

وفي حوالي العقد السابع من القرن الأول الهجري، أصبح الحسن البصري أحد العلماء الأعلام في مركز البصرة العلمي مشاركا بذلك عالمها الأول جابر بن زيد، بل أن هناك من المعاصرين له من جعله إمام البصرة بلا منازع، وربما كان ذلك بعد وفاة جابر، فهذا الزهري يحدد أئمة المراكز العلمية في عصره. فيقول : «العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة، وعامر الشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة ومكحول بالشام».(٣٥) وهذا قتادة يقول : «إذا اجتمع لي أربعة لم التفت إلى غيرهم، وذكر منهم الحسن البصري»، ويقول أيضا : «كان الحسن من أعلم الناس بالحلا ل والحرام»، وعالمان آخران يبديان رأيهما حول الحسن وهما حميد ويونس ابن عبيد بقولهما : «لقد رأينا الفقهاء فما رأينا أجمع من الحسن»(٣٦) لقد ذاع صيت الحسن وشهرته العلمية، حتى أصبح معروفاً في جميع الأوساط العلمية في المراكز الأخرى ولذلك حينما ذهب إلى مكة اهتموا بمقدمه وأجلّوه، واجتمع لديه العلماء وطلبة العلم، حتى أن أساتذة مركز مكة العلمي أمثال مجاهد وعطاء وطاووس وعمرو بن شعيب كانوا فيمن حضر مجلس الحسن واستمعوا إليه، وقد أبدوا إعجابهم به بقولهم : «لم نر مثل هذا قط».(٣٧)

ونجد من المعاصرين له من يفضله على سائر العلماء في عصره فالطبري يروي عن مغيرة قوله : «أعلمهم بالديات والقضاء وأيام الناس الشعبي وأعلمهم بالصلاة والزكاة والحلال والحرام إبراهيم النخعي وأعلمهم بالمناسك عطاء وأعلمهم بالتفسير سعيد بن جبير، وأعلمهم بالتجارة والصرف ابن سيرين والحسن البصري سيدهم في ذلك».(٣٨)

وفي حديثنا عن الحسن لا بد أن نشير إلى موقفه من التطورات في حقل الرواية والفقه، والتي جدَّت في عصره، فالحسن ظل طيلة حياته العلمية محافظاً على نمط الرواية وبالكيفية التي تلقاها عن أساتذته من الصحابة، فقد كان حريصاً على إيصال المعلومات إلى الناس وطلبة

العلم بشكل خاص، وبالتالي فإن اهتمامه كان مركّزاً على معاني هذه الآثار وليس بالضرورة أن يكون النقل حرفياً، فهذا ابن عون يقول : «كان الحسن يحدّث بالحديث وبالمعاني»، وهذا جرير بن حازم يقول : «كان الحسن يحدّث الحديث يختلف فيزيد في الحديث وينقص منه ولكن المعنى واحد».(٣٩)

ويبدو أن النقاش حول ضرورة المحافظة على ألفاظ النص بالنسبة للمرويات قد أثير مع الحسن فهذا غيلان بن جرير يناقش الحسن حول الموضوع قائلاً : «قلت للحسن يا أبا سعيد الرجل يسمع الحديث فيحدّث به لا يألو فيكون فيه الزيادة والنقصان قال : ومن يطيق ذلك»،(٤٠) هذه العبارة الاستفهامية من الحسن تبين موقفه من الرواية، حيث كان الطابع الشفهي هو المسيطر فكأنه يقول من يستطيع أن يروي الأثر دائما كما سمعه كلمة بكلمة وحرفاً بحرف. من يطيق ذلك. وهذا ينسجم مع موقف الحسن بأن العبرة بالمعنى لا باللفظ، هذا الموقف الميسِّر من الحسن كان سابقاً لتطور علم الرواية، ولذلك نجد الموقف نفسه فيما يتعلق بالأخذ والرواية عن الشخص، فالمعروف أنه حينما يقال رُوِى عن فلان يعني سمعه منه مشافهة، وقد لا يتيسر للطلاب جميعاً المشافهة وأحيانا كان الطلاب يقرأون على الأستاذ ما رواه وإن لم يكن مشافهة بالنسبة للقارىء، ويعترف الأستاذ بروايته لما قُرِىءَ عليه، وعلى ذلك تنسب إليه، وهذا أحد التلاميذ يقول للحسن بأنه لا يستطيع حضور الحلقة دائماً نظراً لكونه يسكن بعيداً فيريد أن يقرأ على الحسن ما لديه من أحاديث مروية عن طريقه، ربما يكون قد نقلها عن أحد زملائه – ثم ما يريده وهو المهم، وقد عبَّر عنه بقوله للحسن : «يا أبا سعيد فأقول حدثني الحسن قال : نعم قل حدثني الحسن».(٤١)

الأمر الآخر الذي نود الإشارة إليه هو موقف الحسن من القول بالرأي، ومنهجه في ذلك. كان الحسن ورعاً إلى أبعد درجات الورع، وكان يخشى الله في كل عمل يقوم به، وهو وإن كان قد تصدى للفتوى في مركز البصرة العلمي فإنما يفعل ذلك لاعتقاده بأن ذلك واجب عليه ولولا اعتقاده هذا ما أفتى، فهو يقول : «لولا الميثاق الذي أخذه الله على أهل العلم ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه».(٤٢) ولكن مسائل الناس لم تكن دائماً عن أشياء وردت في الزمن السابق، ويحفظ فيها الحسن سنة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو آراء للصحابة، فهناك أمور مستجدة وأحوال طارئة، والحسن، إحساساً منه بمسؤولية العالم كما عبر عنها سابقاً، كان لا بد أن يفتي الناس كيف يتصرفون حيال مواجهة هذه المشاكل وفق ما تقضي به

أحكام الشريعة، حتى وإن كان ذلك استنباطاً عن طريق الاجتهاد ويرى أن هذا أفضل من أن يترك العالم الناس في حيرة من أمرهم، أو يدعهم يشرعون لأنفسهم ما يشاءون. ويبدو أن هذا الموضوع كان مثار نقاش وجدل في عصر الحسن، فأبو سلمة بن عبد الرحمن أحد فقهاء المدينة السبعة يتوجه بالسؤال إلى الحسن لمعرفة موقفه من هذا الجدل «قال أبو سلمة ابن عبد الرحمن للحسن : أرأيت ما تفتي الناس أشيئاً سمعته أم برأيك فقال الحسن : لا والله ما كل ما نفتي به سمعناه، ولكن رأينا لهم خير لهم من رأيهم لأنفسهم».(٤٣) فالحسن يرى أنه في غياب الأثر الذي يعتمد عليه في الفتوى، فإن الأفضل للعالم أن يفتي السائل بوجهة نظره ورأيه بدلاً من أن يترك السائل الذي ربما لا تتوافر فيه ما يتوفر في العالم من معرفة، يتركه ليفتي نفسه، وهذا رأي يشاركه فيه معظم العلماء في هذه المرحلة.

ونختم حديثنا عن الحسن بما وصفه به ابن سعد في قوله : «كان الحسن جامعاً عالماً عالياً رفيعاً فقيهاً ثقةً مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيّحاً».(٤٤)

محمد بن سيرين :

لقد ولد محمد ونشأ بالمدينة، وكانت ولادته كما يروى عنه أنه ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان.(٤٥) ووالده كان مولى لأنس بن مالك من الأنصار ووالدته مولاة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.(٤٦) ولذلك فإن نشأته العلمية في المدينة، حيث تلقّى العلم في مركز المدينة العلمي في الوقت الذي لا يزال الدور القيادي في هذا المركز لعلماء الصحابة أمثال زيد بن ثابت وأم المؤمنين عائشة وابن عمر وأبي هريرة وغيرهم. وقد استفاد ابن سرين من هذه النشأة ومن الفرصة التي اتيحت له ليكثر من الرواية والتلقي على أيدي هؤلاء الأساتذة الكبار فهو قد سمع أبا هريرة وابن عمر وابن الزبير وعمران بن الحصين ومولاه أنس بن مالك(٤٧) وإذا كان عمران بن الحصين وأنس بن مالك قد سكنا البصرة، وبالتالي فإن تلقيه عنهما بعدما انتقل اليها، فإن أبا هريرة وابن عمر وابن الزبير كانوا موجودين في الحجاز فرواية محمد عنهم تعود إلى مرحلة النشأة العلمية، ويؤيد ذلك أن محمد بن سيرين كان معدوداً في أصحاب أبي هريرة، فقد روي عن ابن المديني قوله : «أصحاب أبي هريرة ستة : سعيد بن المسيب، وأبو سلمة والأعرج وأبو صالح ومحمد بن سيرين وطاووس».(٤٨) وإذا كانت الفرصة لم تتح له للالتقاء ببعض الصحابة مباشرة فقد اتيحت له فرصة لقاء تلاميذهم، فمروياته عن ابن عباس أخذها عن تلميذ ابن عباس ومولاه عكرمة حينما قدم عكرمة إلى العراق كما ذكر ذلك

بعض الرواة قائلا : «كل شيء قال محمد نبئت عن ابن عباس إنما سمعه من عكرمة لقيه أيام المختار بالكوفة».(٤٩) والتقى بتلاميذ عبد الله بن مسعود في رحلته العلمية للكوفة فمن المعروف أنه تتلمذ على عبيدة السلماني وعلقمة بن قيس النخعي من كبار أصحاب ابن مسعود والذين كان لهم دور قيادي في مركز الكوفة في مرحلة مبكرة من هذه الفترة.

ويبدو واضحاً من ثناء العلماء عليه في هذه المرحلة أن ابن سيرين قد استطاع أن يكون نفسه علمياً لدرجة أهَّلته لاحتلال مركز قيادي في البصرة في مرحلة كبار التابعين وفي حوالي العقد الثامن من القرن الأول الهجري، حيث جلس للفتوى مشاركاً بذلك زميليه عالمي البصرة الحسن البصري وجابر بن زيد.(٥٠) ويظهر ثناء العلماء فيما روى عن العجلي في ابن سيرين : «ما رأيت رجلاً أفقه في ورعه ولا أورع في فقهه من محمد».(٥١)

ولكن من أي نوع من الفقهاء كان محمد ؟ وما هو موقفه من التطورات العلمية في عصره ؟ واستناداً إلى العبارة السابقة للعجلي حول ابن سيرين ولما عرف عنه لا بد من القول بادىء ذي بدء أن محمد بن سيرين كان عالماً ورعاً، وقد طغت عليه صفة الورع لدرجة أثّرت على عطائه الفقهي، ففي الوقت الذي رأينا فيه الحسن يفتي الناس برأيه معبراً عن ذلك بقوله : «رأينا لهم خير لهم من رأيهم لأنفسهم» كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، نجد ابن سيرين حذراً جداً من الفتوى التي لم يسمع فيها رأياً من قبل أو لم ينقل له فيها خبر، فهذا أحد معاصريه عاصم الأحول يعطينا صورة عن ذلك من واقع مجلس ابن سيرين فيقول : «كنت عند ابن سيرين فدخل عليه رجل فقال : «يا أبا بكر ما تقول في كذا قال : ما أحفظ فيها شيئا فقلنا له : قل فيها برأيك، قال : أقول فيها برأيي ثم أرجع عن ذلك لا والله».(٥٢)

هذا الموقف من ابن سيرين جعله يتهيب الفتيا لأن السؤال لا يأتي دائما عن أشياء يحفظ فيها خبراً أو أثراً عن أساتذته من الصحابة، ويتوقع الناس منه أن يكون عنده من العلم ما يمكنه من الافتاء، لذلك نجده يتخوف من الفتيا بشكل ظاهر حتى لاحظ ذلك عليه أصحابه الجالسون معه فهذا الأشعث يقول : «كنا إذا جلسنا إليه حدثنا وتحدثنا وضحك وسأل عن الأخبار، فإذا سئل عن شيء من الفقه والحلال والحرام تغير لونه وتبدَّل حتى كأنه ليس بالذي كان».(٥٣) وإذا أفتى بشيء لم يسمع فيه بشيء كانت فتواه غير جازمة، فهذا تلميذه ابن عون، لمَّا راجعه في شيء من الأمور الفقهية سبق وأن تحدثا فيه، أجاب ابن سيرين إجابة تدل على موقفه من الفتوى وعدم جزمه لا سيما في الأمور التي لم يسمع فيها أثراً، فهو

يقول : «إني لم أقل ليس به بأس، إنما قلت لا أعلم به بأساً».(٥٤) وعبارة «لا أعلم به بأساً» لا تعتبر فتوى قاطعة، بل أنها فقط تبين أن ابن سيرين لم يصله علم في تحريم ذلك الشيء المسئول عنه.

وتجدر الإشارة إلى موقف ابن سيرين من رواية الأحاديث وكتابتها، وهنا كذلك نجد ابن سيرين يختلف عن الحسن البصري في ذلك، ففي الوقت الذي لاحظنا أن الحسن يروي الحديث بمعناه دون اهتمام كبير بالألفاظ والحروف، نجد ابن سيرين كما يروي تلميذه عون : «كان محمد يحدث بالحديث على حروفه». ومعنى ذلك أنه كان يهتم بلفظ الحديث كما يهتم بالشخص الذي يروي عنه، وأنه لا بد أن يكون من الذين يوثق بهم، ولذلك فهو يحذر تلاميذه من الرواية عن أي شخص قائلاً : «إن هذا العلم دين فانظروا عن من تأخذونه».(٥٥) ومع حرصه على حرفية الرواية من الراوي الموثوق به، إلا أنه كان لا يحبذ كتابة الحديث وتدوينه والتي انتشرت في عصره، وأصبح العلماء يحضّون عليها، ولكن ابن سيرين كان يحذر منها بقوله : «إياكم والكتب فإنما تاه من قبلكم أو قال : ضل من قبلكم بالكتب».(٥٦) وإذا كنا قد فسرنا اعتراض بعض العلماء على كتابة تلاميذهم، إن ما يكتبون ربما يحتوي على بعض الآراء الفقهية الإجتهادية، وإنهم لا يريدون لآرائهم أن تسجل كما فعل الصحابة من قبلهم، لكن ابن سيرين لم يكن من ذلك النوع من العلماء فقد عرفنا حذره الشديد من الفتوى وعدم قوله بالرأي، فاعتراضه على الكتابة لا بد أن يكون له سبب آخر، ولربما أن موقف الصحابة من كتابة السنة كان له تأثير عليه. ولأن الكتابة ربما تؤدي إلى الاختلاف وأنه ربما لحق المكتوب بعض الإضافات التي قد تؤدي إلى الضياع وتشويه الحقائق. ويبدو أن محمد بن سيرين قد خفف من اعتراضه على كتابة الرواية، ولعل ذلك نتيجة للشكوى من تلاميذه بأنهم لا يستغنون عن الكتابة خوفاً من النسيان.، ونرى أحد تلاميذه وهو يحيى بن عتيق يبين كيف عالج ابن سرين هذه الشكوى باقتراح حل وسط وقد أوضح ذلك بقوله : «إن محمد بن سيرين كان لا يرى بأساً أن يكتب الحديث فإذا حفظه محاه».(٥٧)

هذا هو محمد بن سيرين ويبدو أن ورعه واهتمامه بالرواية وحفظها حرفياً وعدم كتابتها، والاهتمام بالرواة الذين يؤخذ عنهم، قد جعلت منه محدثاً أكثر منه فقيهاً، ولكن ذلك لم يؤثر على أهميته العلمية بالنسبة لمركز البصرة العلمي فقد كان له دور هام وأساسي في هذه المرحلة وقد شارك مع زملائه الآخرين في تكوين مجموعة من العلماء انتقل إليهم الدور القيادي في

المرحلة التالية فقد تتلمذ عليه عدد من علماء البصرة مثل أيوب السختياني وقتادة السدوسي وسليمان التيمي ممن اشتهروا بعده وتتلمذ عليه زميله عالم الكوفة عامر الشعبي،(٥٨) ولقد كان لابن سيرين دور كبير في توجيه مركز البصرة العلمي للدرجة التي ربما نستطيع معها القول بأن موقفه من الفتوى والرواية قد صبغ هذا المركز العلمي كما سنعرف فيما بعد. وكانت مكانته العلمية معروفة لدى علماء المراكز العلمية الآخرين فهذا الشعبي بعدما روي عنه يوجه تلاميذه للأخذ عنه قائلا: «عليكم بذلك الأصم».(٥٩) وهو يعني بذلك ابن سيرين. وقد حفظ المؤرخون هذه المكانة له فالخطيب البغدادي يقول: «كان ابن سيرين أحد الفقهاء المذكورين بالورع في وقته».(٦٠)

ونختم حديثنا عنه بما وصفه به ابن سعد بقوله: «كان ثقةً مأموناً عالياً رفيعاً وفقيهاً إماماً كثير العلم ورعاً».(٦١)

المرحلة الثانيـــة:

هذه المرحلة تمتد من أواخر القرن الأول الهجري حتى نهاية الثلث الأول من القرن الثاني ونهاية العهد الأموي، وهي مرحلة هامة باعتبار أنها تمثل حلقة اتصال بين عصرين هامين عصر التابعين الكبار، وعصر أئمة المذاهب. وقد برز في مركز البصرة خلال هذه المرحلة ثلاثة من كبار العلماء هم أياس بن معاوية المتوفى سنة ١٢٢هـ وقتادة بن دعامة السدوسي المتوفى سنة ١١٨هـ، وأيوب بن كيسان السختياني المتوفى سنة ١٣١هـ، وسنتعرض بالحديث لهم جميعاً ليتبين لنا الدور الذي قاموا به في الحركة الفقهية في البصرة خلال هذه المرحلة.

أياس بن معاويـــة:

لقد ولد أياس بن معاوية مع أوائل الفترة الأولى من عصر التابعين وقد أدرك بعض الصحابة، إلاّ أن الدور الرئيسي في تعليمه وإعداده كان لكبار التابعين الذين تتلمذ عليهم في البصرة أو في المراكز العلمية الأخرى. فمن الثابت أنه التقى بأنس بن مالك وروى عنه.(٦٢) كما أنه قد التقى بعالم المدينة سعيد بن المسيب وأخذ عنه،(٦٣) كما التقى بسعيد بن جبير وأبي مجلز من فقهاء التابعين وروى عنهم.(٦٤) ولما كان أياس ينتمي إلى مركز البصرة العلمي فلا بد أن يكون لعلمائه في مرحلة كبار التابعين أمثال جابر بن زيد، والحسن البصري، ومحمد بن سيرين دور هام في تحصيله العلمي، وهناك في المصادر ما يشير الى ذلك فأياس يقول:

«أدركت البصرة وما لهم من مفت يفتيهم غير جابر بن زيد».(٦٥) وإذا كان هذا رأيه في دور جابر بن زيد العلمي في البصرة فإنه من المتوقع أن يكون أياس وهو في مرحلة الطلب قد التقى بجابر وأخذ عنه. وأياس كان على علاقة حميمة بعالم البصرة وفقيهها الحسن البصري، يدل لذلك أنه حينما ولي أياس القضاء أتاه الحسن زائراً وربما موجهاً.(٦٦) وعلى ذلك فمن المحتمل أن تكون هذه العلاقة من حيث الأساس هي علاقة الأستاذ بالتلميذ، وليس ببعيد أن يكون أياس قد تتلمذ على الحسن وأخذ عنه.

وقد ذكر ابن القيم أياس بن معاوية من بين الطبقة الثانية من علماء التابعين في مركز البصرة العلمي والذين آلت إليهم الفتوى في هذا المركز(٦٧) وبالإضافة إلى هذا الدور الفقهي الهام لأياس فقد تولى قضاء البصرة في عهد عمر بن عبد العزيز.(٦٨) والقضاء في هذه المرحلة له أهميته من الناحية العلمية واختيار أياس لتوليه يدل بلا شك على المكانة العلمية لأياس، كما يوضح أن أياساً قد ساهم بتوليه للقضاء في إثراء الفقه الإسلامي بآرائه وأقضيته. ولقد اشتهر أياس بقدرته العقلية في معالجة المشاكل القضائية التي تطرح عليه، ويقول ابن العماد «بأنه كان يضرب بذكائه وفطنته المثل».(٦٩) ولقد استخدم هذا الذكاء وتلك الفطنة في الوصول إلى الكثير من الآراء الاجتهادية التي أخذت طريقها لتكون جزءاً من الثروة الفقهية في التاريخ الإسلامي. ولم ينته القرن الأول الهجري إلا وقد أصبح أياس بن معاوية عالماً مشهوراً على نطاق الدولة الإسلامية، وحينما ذهب إلى واسط اجتمع العلماء لسؤاله والأخذ عنه ومناقشته، وكان عالم واسط ابن شبرمه قد أعد له مسائل عدة يريد أن يرى رأي أياس فيها، فعرض عليه بضعاً وسبعين مسألة، لم يختلفا إلا في جزء يسير منها. وهذا أستاذه محمد بن سيرين يذكر عنده فيقول: «أنه لفهم».(٧٠)

وبالرغم من قلة المعلومات الواردة عن أياس، إلا أنه بإمكاننا القول بأنه قد أدّى دوراً هاماً وقيادياً في المرحلة التي تلت مرحلة كبار التابعين في مركز البصرة العلمي، وقد تتلمذ عليه مجموعة من العلماء منهم زميله أيوب السختياني، وحميد الطويل والسفيانان، وحماد بن زيد وغيرهم من العلماء.(٧١) وقد وصفه ابن سعد بقوله: «كان ثقةً عاقلاً من الرجال فطناً».(٧٢)

قتادة بن دعامة السدوسي:

لقد نشأ قتادة في مركز البصرة العلمي خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري،

وهي الفترة التي كانت القيادة العلمية فيها لكبار التابعين. وقد سمع **أنس بن مالك** إلا أن معظم تلقيه كان عن كبار علماء التابعين بالبصرة، فهو قد لازم الحسن البصري عالم البصرة وفقيهها فترة طويلة فهو يقول عن نفسه «جالست الحسن اثنتي عشرة سنة».(٧٣) ولم يقتصر قتادة على الحسن في تلقيه حيث روى عن ابن المسيب وأبي عثمان النهدي وابن سيرين وزرارة ابن أوفى والشعبي وغيرهم من العلماء في مختلف المراكز.(٧٤) ولقد كان حريصاً على التلقي والتحصيل العلمي فبعدما جالس الحسن تلك المدة الطويلة، وشعر بأنه قد اكتفى منه أراد أن يتعرف على مصادر أخرى ينمِّي بها حصيلته العلمية، وكان اختياره الأول إمام المدينة وعالمها سعيد بن المسيب فرحل إلى المدينة والتقى به وحضر حلقته، وكان يسأله ويأخذ عنه، وكان ملحاً في أسئلته إلحاحاً دفع سعيد بن المسيب إلى القول : «ارتحل يا أعمى فقد أنزفتني»(٧٥) وإذا كان سعيد بن المسيب قد قال هذه العبارة على سبيل التندر فإنه قد عبر عن إعجابه بقتادة وحفظه فقد سأله قائلاً : أكُلُّ ما سألتني تحفظه ؟ وحينما أثبت له قتادة ذلك قال : «ما كنت أظن أن الله قد خلق مثلك».(٧٦)

وقد اشتهر قتادة بجودة حفظه لما يسمعه فهذا بكر بن عبد الله من علماء الحديث يقول عنه : «من سره أن ينظر إلى حفظ رجل أدركناه وأحرى أن يؤدي الحديث كما سمعه فلينظر إلى قتادة»، وقال سعيد بن المسيب عنه : «ما أتانا عراقي أحفظ من قتادة»، ويعتبر قتادة من أكبر أصحاب الحسن وأثبتهم عنه.(٧٧) ويبدو أن سبب الحافظة القوية لدى قتادة اضافة الى الاستعداد الذاتي والمقدرة الشخصية هو اهتمامه بالحديث وحرصه على حفظه وبذله الجهد في سبيل ذلك فهذا أحد المعاصرين له مطر الورَّاق يصف الطريقة التي يحفظ بها قتادة ما يسمعه من أحاديث فيقول : «كان قتادة إذا سمع الحديث أخذه العويل والزويل حتى يحفظه».(٧٨) هذا والحالة التي عبرّ عنها مطر الورَّاق «بالعويل والزويل» هي الاهتمام الظاهر الذي كان قتادة يبديه وحالة القلق التي تنتابه حتى يتأكد من حفظه لما سمع.

وإذا كُنَّا قد تحدثنا عن قتادة واحداً من العلماء البارزين في مركز البصرة العلمي خلال هذه المرحلة، فإنه من المهم أن نشير إلى أن قتادة قد برز في علم رواية الحديث أكثر من بروزه في المجال الفقهي، فقد كان حافظاً للأحاديث التي رويت له من قبل أساتذته وآرائهم العلمية، وقد كان يعتمد على تلك الآثار يفتي بموجبها. وكان إذا سُئل عن أمر لم يحفظ فيه شيء، أجاب إجابة العالم الأمين بقوله : «لا أدري». هذه الإجابة أثارت لدى بعض السائلين

من طلبة العلم سؤالاً يبدو منطقياً وهو لماذا لم تقل برأيك ؟ ويبدو أن هذا السؤال قد ثار نتيجة للنقاش الفكري الذي كان يدور خلال هذه المرحلة عن مكانة الرأي في الإفتاء. لقد كان جواب قتادة على هذا التساؤل صريحاً ومعبراً بشكل دقيق عن موقفه من القول بالرأي فهو يقول : «ما قلت برأي منذ أربعين سنة. قلت ابن كم هو يومئذ قال : ابن خمسين سنة».(٧٩) ومن ذلك يتبين لنا أنه لم يمارس الاجتهاد مستخدماً الرأي لإعطاء حلول للمشاكل الفقهية التي طرأت في عصره، وكان دوره محدوداً برواية الآثار وحفظها والإفتاء بناء عليها. وربما أنه تأثر في طريقته تلك بمنهج أستاذه محمد بن سيرين، الذي سبق أن ناقشنا عندما تحدثنا عنه، أكثر مما تأثر بمنهج الأستاذ الآخر الحسن البصري، الذي عرف عنه استخدامه للرأي والإفتاء بناءً عليه. هذا الذي أشرنا إليه من موقف قتادة من الرأي لا يقلل من قيمة إسهام قتادة في الحركة الفقهية لمركز البصرة العلمي لأن الفقه يُبْنَى بالأساس على المرويات التي تشمل سنة الرسول عليه الصلاة والسلام وأقوال الصحابة وآرائهم وتفسيراتهم للآيات القرآنية وآراء كبار التابعين من تلاميذ الصحابة. وبالرغم من حافظة قتادة التي اشتهر بها فإنه لم يلزم تلاميذه الحفظ، بل سمح لهم بالاستعانة بالكتابة حتى يستطيعوا مذاكرة ما سمعوه منه وقد سألوه قائلين : يا أبا الخطاب أنكتب ما نسمع ؟ فأجاب سائلهم : وما يمنعك أن تكتب وقد أنبأك اللطيف الخبير أنه قد كتب وقرأ في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى».(٨٠) ومتابعة قتادة للتطورات العلمية التي تحدث في حقل تخصصه هو الذي دفعه للسماح لتلاميذه بالكتابة. وتتضح هذه المتابعة في موقف آخر وتطور ثان من التطورات في علم رواية الحديث، فقد كانت الطريقة السائدة في أوائل عهد قتادة بالرواية أن ينسب القول إلى قائله مباشرة دون ذكر للسند، فهذه الطريقة التي نشأ عليها قتادة في تلقيه، وبالتالي فهو يمارسها حينما يروي لتلاميذه، ويقول معمر أحد تلاميذ قتادة «كنَّا نجالس قتادة ونحن أحداث فنسأل عن السند فيقول مشيخه حوله : مه أن أبا الخطاب سند فيكسرونا عن ذلك».(٨١) ولكن قتادة من خلال متابعته للتطور في علم الرواية. وعندما رأى أن السند قد أصبح جزءاً لا يتجزأ من علم الرواية، وأنه يعطي ثقلاً علمياً لمرويات وأن العلماء الآخرين في المراكز العلمية الأخرى يسندون الرواية اتجه إلى تعديل الطريقة التي كان يروي بها الآثار. فهذا حماد بن سلمة، أحد تلاميذه يقول : «كنا نأتي قتادة فيقول : بلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وبلغنا عن عمر، وبلغنا عن علي ولا يكاد يسند، فلما قدم حماد بين أبي سليمان البصرة جعل يقول : حدثنا إبراهيم وفلان وفلان، فبلغ قتادة ذلك فجعل يقول : سألت مطرفاً وسألت سعيد بن

المسيب، وحدثنا أنس بن مالك فأخبر بالإسناد».(٨٢) وفي هذه المرحلة قام قتادة بدور رئيسي في مركز البصرة العلمي في نقل الآثار التي حفظها عن الأجيال السابقة والإفتاء بموجبها. وقد شارك مع بقية العلماء الآخرين في هذه المرحلة في تأهيل جيل جديد من العلماء لمتابعة المسيرة العلمية في هذا المركز والمراكز الأخرى. وقد تتلمذ على يديه وروى عنه جماعة من التابعين منهم سليمان التيمي وحميد الطويل والأعمش وزميله أيوب هؤلاء من طبقته كما روى عنه جماعة من تابعي التابعين منهم مطر الوراق وجرير بن حازم وشعبة والأوزاعي وغيرهم، وقد أجمع العلماء على جلالته وتوثيقه وحفظه وإتقانه.(٨٣) ويقول عنه ابن سعد : «كان ثقةً مأموناً حجةً في الحديث».(٨٤)

أيوب بن كيسان السختياني :

لقد ولد أيوب ونشأ في مركز البصرة العلمي وتلقى عن علمائه علومه الأولية، وقد أدرك من الصحابة أنس بن مالك، ولكن تلقيه وطلبه للعلم كان على أيدي كبار التابعين أمثال عمرو ابن سلمة الجرمي وأبي رجاء العطاردي وأبي عثمان النهدي وأبي الشعثاء جابر بن زيد، ويعتبر أيوب من تلاميذ الحسن البصري، ومحمد بن سيرين عالمي البصرة في مرحلة كبار التابعين، وهو وإن تلقى عنهما معظم ما رواه فإنه لم يقتصر عليهما بل روى عن غيرهما من العلماء في المراكز العلمية الأخرى، فقد أورد النووي أنه روى عن سالم بن عبد الله بن عمر، ونافع مولى عبد الله بن عمر.(٨٥) وكان على علاقة جيدة مع سالم بن عبد الله بن عمر كما يشير إلى ذلك ابن سعد.(٨٦) لقد استطاع أيوب أن يكوِّن لنفسه مكانة علمية متقدمة في مركز البصرة العلمي، وفي مرحلة مبكرة من عمره مما دفع أساتذته إلى الإعجاب به فهذا الحسن البصري يقول عنه : «أيوب سيد شباب البصرة».(٨٧) وهذا محمد بن سيرين بلغت به الثقة بأيوب أن يروي عنه وهو أستاذه، فيروى أنه حدَّث يوماً حديثاً فقالوا : «عمن هذا يا أبا بكر قال : حدثنيه أيوب السختياني، فعليك به».(٨٨) وكان ابن سيرين إذا حدَّث عن أيوب قال : «حدثني الصدوق».(٨٩) هذه الثقة من أساتذته تضاعفت مع تقدم أيوب العلمي وانعكست بالتالي على مكانة أيوب العلمية في البصرة ولذلك حينما توفى محمد بن سيرين تساءل تلاميذه قائلين : من لنا بعد محمد ؟ ويروي أحدهم جوابهم على هذا التساؤل بقوله : «قلنا لنا أيوب».(٩٠) وقد وصفه تلاميذه بما هو أهله، فهذا شعبه يقول عنه : «كان سيد الفقهاء، وهذا ابن عيينه، وقد لقي عدداً كبيراً من علماء التابعين يقول عنه : «ما لقيت فيهم مثل

أيوب».(٩١) ولم يقتصر الثناء عليه من قبل علماء البصرة فقط بل إننا نجد عالم المدينة في عصره هشام بن عروة يقول : «ما رأيت في البصرة مثل ذلك السختياني».(٩٢)

والسؤال الذي يرد هنا هو إذا كان هذا هو رأي العلماء والمعاصرين له في مكانته العلمية فما هو دوره في الحركة الفقهية في مركز البصرة العلمي ؟ ولكي نجيب على هذا التساؤل، لا بد من الإشارة إلى أنه من خلال دراستنا لمركز البصرة نجد أن الشيء الغالب على هذا المركز هو رواية الآثار، وقلما نجد في البصرة عالماً يشابه إبراهيم النخعي في الكوفة، حتى الحسن البصري وهو إمام البصرة وعالمها المشهور وعلى الرغم من شهرته في الاجتهاد في علم الحلال والحرام فإنه لم يظهر تأثيره في هذا الجانب من الحياة العلمية في البصرة، حيث الطابع الغالب هو الرواية. لهذا فإنه ليس من المستغرب أن يكون بروز أيوب السختياني في رواية الآثار أكثر وضوحاً من الجوانب الأخرى. فالتنافس في هذا المركز كان على الرواية والحفظ والإفتاء على أساسها. ولذلك نجد حماد بن زيد يروي لنا موقفاً علمياً فيقول : «سئل أيوب عن شيء فقال : لم يبلغني فيه شيء فقال : قل برأيك فقال : لم يبلغه رأي».(٩٣) هذا الموقف من أيوب منسجم مع طبيعته كناقل للآثار مفتياً بموجبها، وأميناً في نقله وفي علمه لا يدَّعي أنه يعلم مالا يعلمه ولذا فهو يحيل السائل إلى غيره كما روى ابن شوذب : كان أيوب إذا سئل عن الشيء ليس عنده فيه شيء قال : سل أهل العلم. وقد لاحظ ذلك تلميذه حماد ابن زيد وقال متعجباً : «ما رأيت أحداً أكثر من قول لا أدري من أيوب ويونس».(٩٤)

وكما أوضحنا في حديثنا عن قتادة فإن موقف أيوب هذا لا يعبر عن موقف مبدئي رافض للاجتهاد وإبداء الرأي بقدر ما يعبر عن أمانة علمية متناهية في هذا العالم الجليل، فهو قد قصر نفسه على الآثار يجمعها ويحفظها ويفتي بما يعلمه منها، ولا يدَّعي لنفسه المقدرة الفقهية في الاجتهاد، والتفريع على هذه النصوص. أورد أبو نعيم الأصفهاني رواية قد تفسَّر بأنها تمثل موقفاً مبدئياً رافضاً للاجتهاد، فهو يروي عن حماد بن زيد قوله : «سمعت أيوب، وقيل له : مالك لا تنظر في هذا – يعني الرأي – فقال أيوب : قيل للحمار ألا تجتر فقال : أكره مضغ الباطل»،(٩٥) هذه العبارة إذا دققنا النظر فيها وجدنا أن عبارة «يعني الرأي» مقحمة عليها ربما كتفسير من أحد الرواة بعد حماد بن زيد لأنه من غير المعقول أن تتصور أن أيوب يرى أن الاجتهاد واستخدام الرأي باطلاً مع أنه كان يرى أستاذه الحسن البصري يجتهد ويقول : رأينا لهم خير لهم من رأيهم لأنفسهم»(٩٦) إذن لا بد من تفسير آخر لهذه العبارة وما هو

المقصود بها، ولمّا كان النقاش العلمي في عصر أيوب حول الآراء العقائدية قد بلغ ذروته فواصل بن عطاء إمام المعتزلة كان معاصراً لأيوب في مركز البصرة العلمي، وفي حلقات مساجدها كان النقاش يدور حول الجبر والاختيار والقضاء والقدر والتشبيه والتعطيل. لذلك فإنني أميل إلى أن الباطل الذي يعنيه أيوب هو الخوض في هذه المسائل والآراء التي ظهرت مخالفة لآراء السلف، وتلك الفلسفة الجديدة التي لم يعهدها عن أساتذته من كبار التابعين، ويؤيد هذا التفسير ما صدر عن أيوب نفسه من أقوال وتصرفات فهو يقول : «ما ازداد صاحب بدعه اجتهاداً إلا ازداد من الله بعداً»، وحينما استوقفه رجل من أهل الأهواء قائلاً : «أكلمك كلمة قال : لا ولا نصف كلمة».(٩٧) ونختم حديثنا عن أيوب بما وصفه به ابن سعد : «كان أيوب ثقةً ثبتاً في الحديث جامعاً عدلاً ورعاً كثير العلم حجةً».(٩٨)

وفي ختام حديثنا عن مركز البصرة العلمي لا بد من الإشارة إلى ما تميز به هذا المركز على صعيد المقارنة بينه وبين الحركة الفقهية في الكوفة. ففي المقام الأول نجد أن الحركة الفقهية في الكوفة كانت أسبق في الظهور من مثيلتها في البصرة، وقد أشير في البحث إلى أسباب ذلك، من حيث وجود العديد من العلماء من تلاميذ كبار الصحابة في الكوفة في وقت مبكر من عصر التابعين، الشيء الذي لم يحدث في البصرة إلا في حوالي العقد السادس أو السابع من القرن الأول الهجري.

كذلك من الفروق الظاهرة بين المركزين في العراق هو اختلاف التركيز في اهتمامات كل من علماء هذين المصرين. ففي الوقت الذي نجد أن النشاط الفقهي كان قوياً وواضحاً في مركز الكوفة. وكبار علمائه من الفقهاء الذين كان لهم باع طويل في مجال الإفتاء وفقه الحلال والحرم أمثال علقمة والأسود وعبيدة السلماني وشريح بن الحارث في المرحلة الأولى من عصر التابعين، وإبراهيم النخعي إمام الكوفة في المرحلة الثانية والعالم المشهور بعقليته الفقهية الفذة، والتي أثّرت في تلميذه، حماد بن أبي سليمان أحد العلماء البارزين في المرحلة الثالثة من عصر التابعين في الكوفة، والذي أثّر بدوره على شيخه إمام المذهب الحنفي أبي حنيفة.

أما في مركز البصرة فإنه على الرغم من الدور العلمي لمشاهير علمائها في مجال الإفتاء. إلا أن الطابع الغالب عليهم هو الاهتمام بالرواية، وحفظ الآثار والإفتاء بموجبها دون أن

تبرز من بينهم شخصية فقهية هامة كشخصية إبراهيم النخعي في الكوفة مثلاً. وحتى الحسن البصري إمام البصرة المشهور بعلم الحلال والحرام والذي كان يفتي الناس بآرائه واجتهاداته الفقهية. ولكن تأثيره ظل محدوداً بالنسبة لمركز البصرة في هذا الجانب. لقد كان أكثر علماء هذا المركز مهتمين بالرواية وحفظها أكثر من اهتمامهم بأي شيء آخر. وقد عرفنا ذلك من خلال دراستنا لبعضهم أمثال محمد بن سيرين وقتادة السدوسي وأيوب السختياني.

وقد أشرنا سابقاً أن ذلك لا يقلل من الدور العلمي لأي من المركزين، فالتلازم واضح بين الرواية والاستنباط، كل منهما لا يستغني عن الآخر. وإذا كان علماء البصرة قد ركّزوا اهتمامهم بجمع الآثار وحفظها أكثر من تركيزهم على استنباط الأحكام والتفريع على النصوص، فإن ذلك قد خدم الفقه الإسلامي بحفظه للأساس الذي بنى عليه علماء آخرون اجتهاداتهم وآرائهم الفقهية.

الحواشـــي

(١) محمد بن سعد بن منيع البصري، الطبقات الكبرى، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٨م، جـ ٧، ص ٨ - ٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠ - ١١.

(٤) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، القاهرة، دار المعارف للطباعة ١٩٦٣م، جـ ٥، ص ٢٢٤.

(٥) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، العبر في خبر من غبر، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٠، جـ ١، ص ٥٧.

(٦) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٢١.

(٧) المصدر السابق، ص ٢٢.

(٨) يحى بن شرف بن مري النووي، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق : فرديناند ويستفيلد، قوتنفين، ١٩٤٧، ص ١٨٣.

(٩) صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي، خلاصة تهذيب الكمال، القاهرة، مكتبة القاهرة، ١٩٧١م، جـ ١، ص ١٨٤.

(١٠) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، القاهرة مطبعة السعادة ١٩٣٢م، جـ ٣، ص ٨٥ - ٨٦:٨.

(١١) نفسه.

(١٢) نفسه.

(١٣) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٨٠.

(١٤) نفسه.

(١٥) نفسه.

(١٦) أبو نعيم الأصفهاني، المصدر السابق، جـ ٣، ص ٨٨.

(١٧) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٨١.

(١٨) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، حيدر آباد، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ١٣٣٥هـ، جـ ٢، ص ٣٨.

(١٩) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٨١.

(٢٠) المصدر السابق، ص ١٨٢.

(٢١) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٨.

(٢٢) النووي، المصدر السابق، ص ١٨٣.

(٢٣) أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق : د. احسان عباس، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٧٨م ص ٨٧.

(٢٤) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٥٧.

(٢٥) النووي، المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(٢٦) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٥٦.

(٢٧) الشيرازي، المصدر السابق، ص ٨٧.

(٢٨) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٥٧.

(٢٩) المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٣٠) أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، القاهرة، مكتبة القدس ١٣٥٠هـ، جـ ١، ص ١٣٨.

(٣١) الذهبي، المصدر السابق، جـ ١، ص ٥٧.

(٣٢) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٥٧.

(٣٣) نفسه، والنووي، المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(٣٤) الشيرازي، المصدر السابق، ص ٥٨.

(٣٥) أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، القاهرة، مطبعة السعادة ١٣٤٩هـ، جـ ١٢، ص ٢٢٩.

(٣٦) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٦٢ - ٦٣، ١٧٠.

(٣٧) المصدر السابق، ص ١٥٧.

(٣٨) محمد بن جرير الطبري، المنتخب من كتاب ذيل المذيل، القاهرة، المطبعة الحسينية، ص ٩٣.

(٣٩) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٤٠) المصدر السابق، ص ١٧٣.

(٤١) نفسه.

(٤٢) المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٤٣) نفسه.

(٤٤) المصدر السابق، ص ١٥٧.

(٤٥) المصدر السابق، ص ١٩٣.

(٤٦) الشيرازي، المصدر السابق، ص ٨٨، ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٩٣.

(٤٧) النووي، المصدر السابق، ص ٨٣، البغدادي، المصدر السابق، جـ ٥، ص ٣٣١.

(٤٨) المصدر السابق، ص ٣٣٣.

(٤٩) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٩٤، الخزرجي، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤١٢.

(٥٠) أبو نعيم الأصفهاني، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٦٣.

(٥١) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٩٦.

(٥٢) أبو نعيم الأصفهاني، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٦٨.

(٥٣) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٩٥.

(٥٤) المصدر السابق، ص ١٩٦.

(٥٥) المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٥٦) نفسه.

(٥٧) أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تقييد العلم، دار إحياء السنة النبوية، ١٩٧٤م، ص ٦٠.

(٥٨) النووي، المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٥٩) الذهبي، العبر، جـ ١، ص ١٣٥.

(٦٠) النووي، المصدر السابق، ص ١٠٧.
(٦١) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٩٣.
(٦٢) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٩٠.
(٦٣) أبو نعيم الأصفهاني، المصدر السابق، جـ ٣، ص ١٢٥.
(٦٤) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٩٠.
(٦٥) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٧٥.
(٦٦) المصدر السابق، ص ٢٣٤.
(٦٧) شمس الدين محمد بن أبي بكر بن القيم، أعلام الموقعين، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٦٨م، جـ ١، ص ٢٤.
(٦٨) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق : د. أكرم العمري، بيروت، دار القلم ١٣٩٧هـ، ص ٣٢٤.
(٦٩) ابن العماد، المصدر السابق، جـ ١، ص ١٦٠.
(٧٠) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٢٣٤.
(٧١) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٩٠.
(٧٢) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٢٣٤.
(٧٣) النووي، المصدر السابق، ص ٥١٠.
(٧٤) المصدر السابق، ص ٥٠٩.
(٧٥) الشيرازي، المصدر السابق، ص ٨٩، الذهبي، العبر، جـ ١، ص ١٤٦.
(٧٦) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٢٣٠.
(٧٧) النووي، المصدر السابق، ص ٥٠٩ - ٥١٠، الخزرجي، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٥٠.
(٧٨) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، جـ ٨، ص ٣٥٣.
(٧٩) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٢٢٩.
(٨٠) المصدر السابق، ص ٢٣٠.
(٨١) نفسه.
(٨٢) المصدر السابق، ص ٢٣٠، الذهبي، العبر، جـ ١، ص ١٧٢.
(٨٣) النووي، المصدر السابق، ص ٥٠٩.
(٨٤) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٢٢٩.
(٨٥) النووي، المصدر السابق، ص ١٧٠.
(٨٦) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٢٤٩.
(٨٧) الشيرازي، المصدر السابق، ص ٨٩.
(٨٨) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٢٤٧.
(٨٩) أبو نعيم الأصفهاني، المصدر السابق، ج ٣، ص ٤.
(٩٠) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٤٩.
(٩١) النووي، المصدر السابق، ص ١٧١.
(٩٢) الشيرازي، المصدر السابق، ص ٨٩.
(٩٣) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٢٤٧.
(٩٤) نفسه.
(٩٥) أبو نعيم الأصفهاني، المصدر السابق، جـ ٣، ص ٨.
(٩٦) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٦٥.
(٩٧) أبو نعيم الأصفهاني، المصدر السابق، جـ ٣، ص ٩.
(٩٨) ابن سعد، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٢٤٦.